نداءات سورة الصف

obeikandl.com

سورة الصف

مدنية، آياتُها أربع عشرة آية .

المحور الذي تقوم عليه السورة:

إن المؤمن عندما يتفانى في مرضاة ربه، يتجاوب مع كل شيء في الكون يسبح بحمد ربه، أما المقصر فهو شذوذ في هذا الكون وخروج على قاعدة الطاعة ولذلك افتتحت سورة الصف بهذه الآية: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

ثم تحدثت عن قتال أعداء الله، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته، وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة، ولكن المحور الذي تدور عليه موضوع السورة (القتال) ولهذا سميت سورة الصف.

جاء في هذه السورة ثلاث نداءات للمؤمنين:

الأول: عدم التردد بين القول والفعل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ .

الثاني: دعوة الذين آمنوا إلى تجارة مضمون ربحها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

الثالث: يختم السورة بدعوتهم إلى نصرة دين الله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ .

* * *

obeikandl.com

النداء الأول

عدم التردد بين القول والفعل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، وهذا إنكار على من يعد وعدًا أو يقول قولاً لا يفي به فيقول الخير ويحث عليه ولا يفعله، وينهى عن الشر ويكون متصفًا به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ كما قال - تعالى-: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] على لسان سيدنا شعيب عليه السلام.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾: أي من أكبر المقت أي البغض عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل.

مناسبة النزول :

كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه وجهاد أهل معصيته، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم [1]، فنزلت الآية، ثم أخبرهم - تعالى- بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾: أي يحب المجاهدين الذين يَصُفُّون أنفسهم عند القتال صفًا متراصًا متساويًا من غير خلل يحصل في الصفوف، به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضًا.

قال القرطبي: ومعنى الآية أنه - تعالى- يحب من يثبت في الجهاد في

(١) مختصر تفسير ابن كثير.

سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء، وهذا تعليم من الله - تعالى- للمؤمنين كيف يكونوا عند قتال عدوهم، وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ عند ملاقاة العدو.

الحكم الفقهي في هذه الآية :

هل يأمر العالم بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه؟

قال ابن كثير: إن كلاً من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قول العلماء من السلف والخلف، وذهب بعضهم إلى أن مرتكبي المعاصي لا ينهي غيره عنها، وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ فإنّهم لا حجة لهم فيها، والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعل المعصية، لعلمه بها، ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك.

وأما ما ذكره الضحاك عن ابن عباس أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنْهى عن المنكر. قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل. قال: وما هن. قال: قوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾، أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني. قال: قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

فليس المراد منه عدم الأمر بالمعروف إلا إذا كان مؤتمرًا به، ولا عدم النهي عن المنكر إلا إذا كان منهيًا عنه، وإلا لقال له: لا تأمر بالمعروف ولا تنه عن المنكر ما دمت كذلك، وإنما المراد منه أن الأفضل لمن يأمر بالمعروف أن يكون مؤتمرًا به، والأفضل للناهي عن المنكر أن يكون منهيًا عنه.

ما ترشد إليه الآيات :

١- المؤمن ظاهره كباطنه لا يكذب عملاً بتوجيه الرسول ﷺ كما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان**» [1]. ولذلك امتنع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ منه حديثًا، حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ، فتحرج أن يروي عنه، وقد كذب على بغلته.

٢- إن الرسالات الكبرى يحتاج في نصرتها إلى الجد والصدق ولا يصح في مساندتها أهل الكلام والدعوى، ولا الجبناء الذين إذا كلفوا بالجهاد تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت.

٣- المؤمن منظم في كل شيء حتى أمام العدو التنظيم والترابط فيه مساواة بين المجاهدين وتعاضد، يرهب العدو.

تذييل:

لو اجتمع المسلمون كما يجتمعون في صلاة الجمعة والأعياد لهزموا جحافل الأعداء، ولو تصافحت نفوسهم كما تتصافح أيديهم لقضوا على عوامل الفرقة، ولو كبرت قلوبُهم كما تكبر ألسنتهم بالعيد لغيروا وجه التاريخ، ولو عرف المسلمون مغزى الجهاد في سبيل الله لا في ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون في سبيل الله وحده لتكون كلمة الله هي العليا؛ لكان تحقق وعد الله لهم بالتمكين والنصر.

* * *

(١) سبق تخريجه.

obeikandl.com

النداء الثاني

دعوة الذين آمنوا إلى تجارة مضمون ربحها

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

مناسبة النزول :

عندما سأل الصحابة الرسول ﷺ عن أحب الأعمال فأنزل الله هذه الآية.

المعنى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذه دلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين؛ لأعظم تجارة يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.

الاستفهام للتشويق، والجملة (هل أدلكم...) مستأنفة استئنافًا بيانيًا جوابًا عن سؤال نشأ من الكلام السابق، فكأنه قيل ما هذه التجارة التي هذا قدرها، فقال: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

فبين هذه التجارة وهي: الإيمان التام، وهو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به المستلزم لأعمال الجوارح، التي من أجلها الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وسعه لنيل ما عند الله من الثواب والنجاة من العقاب.

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن هذا فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والخير الأخروي بالفوز بثواب الله، إن كان عندكم فهم وعلم، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ

﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك يستر عليكم الذنوب ويمحها بفضله، وهو شامل للصغائر والكبائر بشرط إقامة الحد أو التوبة.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي: يدخلكم حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها أنْهار الجنة.

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرف.

﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وسميت (عدن)؛ لأن أهلها مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه والسعادة الدائمة التي لا سعادة بعدها.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ أي: يمن عليكم بخصلة أخرى تحبونها وهي:

﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: ينصركم على أعدائكم وتتسع دائرة الإسلام ويحصل به الرزق الواسع.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يا محمد ﷺ بشرهم بالثواب العاجل والآجل كل على حسب إيمانه.

من لطائف القرآن الكريم :

١- قوله - تعالى-: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ في مواضع أخرى من القرآن الكريم يقول المولى عز وجل: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ فتأمل أي الأعمال يغفر الذنوب جميعًا، وأيها يغفر البعض منها ؟

٢- ذكر - سبحانه وتعالى - جزاء المؤمنين المجاهدين في قوله: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ . وأما المؤمنون غير المجاهدين إذا قام غيرهم بالجهاد فلم يدع أمرهم، بل مدهم من فضله وإحسانه فقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب العاجل والآجل وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ «**من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة**». فعجب لها أبو سعيد الخدري راوي الحديث، فقال: أعدها يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال:

«**وأخرى يرفع بها العبد في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**». فقال: وما هي يا رسول الله ؟ **قال:** «**الجهاد في سبيل الله**»[1].

ما ترشد إليه الآيات :

١- الإيمان الصادق والجهاد في سبيل الله من أعظم القربات إلى الله -سبحانه وتعالى-.

٢- أن فضل الله ليس له حدود، فمن الذي يضمن أن يغفر له ذنوبه ثم يتطلع إلى شيء بعدها، ولكن فضل الله عظيم، يعلم تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض.

تذييل:

يقول أحد الصالحين: إن الأمة التي تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب الله لها الحياة العزيزة في الدنيا، والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة، واعلموا أن الموت لابد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموه في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا، وثواب الآخرة، وما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم.

* * *

(١) رواه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: بيان ما أعده الله للمجاهد في الجنة، حديث (١٨٨٤)، وأبو داود مختصرا، حديث (١٥٢٩)، والنسائي، حديث (٣١٣١) . انظر التفسير السعدي.

obeikandl.com

النداء الثالث

دعوة الذين آمنوا إلى نصرة دين الله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

صلة النص بما قبله :

لقد خُتمت السورة بنداءين كريمين يصدقان ما بدئت به:

الأول: أن الحياة إيمان وجهاد ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ .

أما الثاني: فهو استعداد المؤمن في كل موطن لنصرة دين الله وإعلاء كلمته.

المفردات والتراكيب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾ أي: انصروا دين الله وأعلوه بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله وتنفيذه وجهاد من عانده ونابذه.

﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾ أي: قال لهم منبهًا من يعاونني، ويقوم معي في نصر دين الله وتبليغ دعوته، «**الحواريون**» الأصفياء والخواص من أتباع عيسى - عليه السلام - وهم الذين ناصروه كأصحاب محمد ﷺ وفيه تهييج للمؤمنين بالإقتداء بمن قبلهم من الصالحين.

﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به، ومؤازروك على ذلك.

﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ ﴾ أي: انقسم بنو إسرائيل جماعتين، جماعة آمنت به وصدقته وجماعة كفرت وكذبت عيسى - عليه السلام -.

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ أي: قويناهم ونصرناهم عليهم ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ قاهرين لهم بالحجة والبرهان باللسان والسنان.

obeikandl.com

المعنى الإجمالي :

يا أيها الذين آمنوا انصروا دين الله وأعلوه بالأقوال والأفعال والحرص على تنفيذه على الغير، وجهاد الباطل بدحض حجته وإقامة الحجة عليه، ومن نصرة دين الله تعلم كتابه وسنة رسوله والحث على ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما فعل الحواريون خواص وأتباع عيسى - عليه السلام - وهكذا كان أصحاب محمد ﷺ في أيام الحج كان يقول: «**ما من رجل يأويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشًا منعوني ان أبلغ رسالة ربي**»، حتى قيض الله - تبارك وتعالى - له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه وآزروه، وبايعوه على أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم.

فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه، وفوا بما عاهدوا الله عليه، ولهذا أسماهم الله ورسوله (الأنصار) وصار علم عليهم [1] رضي الله عنهم وأرضاهم، فآمنت طائفة من بني إسرائيل بسبب دعوة عيسى - عليه السلام - والحواريين، وكفرت طائفة، فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بعظائم الإفتراءات وسفاسف الأمور وهم اليهود عليهم لعنات الله المتتابعة إلى يوم القيامة، اللهم آمين.

وغَلَتْ فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوه فرقًا وشيعًا، فمن قائل منهم: إنه ابن الله. ومن قائل: ثالث ثلاثة **(الأب والابن والروح القدس)** ومن قائل: إنه الله - سبحان الله وتعالى - عما يقولون علوًا كبيرًا.

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ قويناهم ونصرناهم عليهم، فأنتم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوكم [2].

* * *

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير السعدي بتصرف.

ما ترشد إليه الآية :

١- إن الحياة جهاد وإيمان وقد اقتبس شوقي رحمه الله هذا المعنى فقال:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدًا إن الحياة عقيدة وجهاد!

٢- والعبر المستفادة من هذا النداء هي: استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير، الأمناء على منهج الله في الأرض، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية، المختارين لهذه المهمة الكبرى، والنصر في النهاية لأنصار الله[1].

٣- إن أمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، حتى يقاتل آخرهم الدجال مع عيسى - عليه السلام ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، ويتأتى ذلك بأن تشهد للإسلام شهادة عملية كما شهدنا من قبل شهادة قولية، فيطابق الفعل القول، والمسلمون في هذا العصر بحاجة إلى فهم هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ... ﴾ .

* * *

(١) تفسير الظلال.